مصادر المعرفة

دارت حول المعرفة الإنسانية نقاشات كثيرة في جوانبها المختلفة كما أشرنا إليه سابقا، ومنها ما دار حول الكيفية التي تكتسب بها المعرفة بغض النظر طبيعة المعرفة مباشرة كانت أو غير مباشرة، علمية أو فلسفية، إذ ذهب بعضهم إلى القول بوجودها مع الإنسان وبالتالي فطريتها، في حين ذهب بعضهم الآخر إلى القول بالاكتساب والتعلم.

المطلب الأول

المعرفة الفطرية :

يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى القول بأن الإنسان يولد مزودا بمعرفة كاملة، وما يقوم به في هذا العالم في الحقيقة مجرد استذكار واستعادة لمجموعة المعارف التي سبق وأن اكتسبها في عالم ما قبل الحياة الدنيا الذي جاء إليه إما:

- نتيجة لتناسخ الأرواح من خلال التجسد حيث يشاع مثلا أن: "أحد رؤساء الأديرة الذي توفي ... قد تجسد مرة أخرى في جسد راهب شاب وأنه بدوره تجسد بعد موته في راهب أخر"[1] كما قالت البوذية.

- أو عقوبة من عالم المثل كما قال بذلك الفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي اشتهر بنظرية الاستذكار. حيث ذهب إلى: "أن مصدر المعرفة هي النفس وليس الحواس، لأن كل ما يمكن للنفس أن تقتبسه هو موضوع العلوم، وما لا تتصل به إلا بواسطة الحواس هو معرض للخلط والشك، وعلى هذه المثابة تكون النفس ينبوع الحقائق الثابتة الأكيدة، وهذه الحقائق الثابتة تعرفها النفس بتذكرها قبل اتحادها بالجسد

ونسيته بعد هذا الاتحاد، وما الكليات فينا إلا ما كانت تعرفه النفس قبل، لاستحالة معرفتها الكليات بواسطة الحواس التي لا تقتبس إلا الجزئيات، العين ترى الإنسان، أما الإنسانية فالنفس تعرفها لأنها كانت تراها قبل اتحادها بالجسد، أما في باقي المعارف التي تصل إليها النفس بعد اتحادها بالجسد فتحفظ في الذاكرة"[1].

فقد أقام تصوره على ما يعرف بنظرية عالم المثل التي تقسم العالم إلى قسمين: عالم الحقائق وهو عالم المثل وعلم الفساد أو عالم الواقع؛ إذ يرى أن النفس قبل اتصالها بالبدن كانت تعيش رفقة الآلهة حيث تشاهد وراء السماء موجودات ليست بذات لون ولا شكل، وعندما ارتكبت الآثام كما جاء في محاورة فايدروس عوقبت بأن هبطت إلى هذا العالم وارتبطت بالبدن، وبهذا تتعرف النفس فهي تتذكر وعندما تعجز عن الإدراك فهي تكون قد نست.

لتوضيح هذه الفكرة أكثر لا بأس من نقل ما كتبه حنا الفاخوري وخليل الجر في كتابهما تاريخ الفلسفة العربية عندما قالا: "فنحن في حياة سالفة كنا نتمتع بمشاهدة المثل الأزلية مشاهدة مباشرة، لكننا لذنب اقترفناه فقدنا هذا النعيم وهبطت نفسنا إلى الأرض فحلت في جسم ترابي أصبح لها سجنا كما هو الحال في سجناء الكهف، وفقدنا بهذا التجسد معرفة الأشياء الإلهية التي حصلنا عليها، لكن الأشياء الجزئية عندما تعرض لإدراك حواسنا تحيي فينا ذكرى مثلنا وتعيد إلينا شيئا من معرفتنا الغابرة"[2].

وقد حاول أفلاطون نفسه أن يحدد الكيفية التي تحصل عن طريقها المعرفة في العقل فقال في كتابه المميز "الجمهورية": "تصور طائفة من الناس تعيش في كهف، لهذا الكهف باب يدخل منه النور فيضئ أرجاءه وقد سجن فيه أناس منذ نعومة أظافرهم،

والسلاسل في أعناقهم وأرجلهم بحيث تستعصي عليهم الحركة، ولا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى ما يمر أمامهم لحيلولة الأغلال دون التفاتهم.

ثم تصور أن وراءهم نار ملتهبة في موضع أعلى من موضعهم وأن بينهم وبينها جدارا منخفضا كسياج المشعوذين الذين ينصبونه لمشاهديهم، ثم تصور أن هناك أناسا يمشون وراء ذلك الجدار حاملين تماثيل بشرية، أو حيوانية مصنوعة من الخشب أو الحجر، مرفوعة فوق الجدار وافترض أن بعض أولئك العامة يتكلم وبعضهم صامت، وأن هؤلاء السجناء لا يرون إلا الضلال التي أحدثها اللهيب وراءهم لأنهم مقيدون لا يلتفتون، يحسبون هذه الظلال حقائق، ويظنون أنها تتكلم.

فلو فرضنا أن أحد هؤلاء السجناء فكت أغلاله، ونهض واقفا على قدميه فتمكن من الالتفات إلى الوراء، لما قوى على رؤية الأشياء الحقيقية التي تعود على رؤية ظلالها لشدة بريقها، ولو جاء رجل وأخبره أن ما كان يراه من قبل ليس سوى أوهام وضلال لما صدقه، فهو لا يألف إدراك الحقائق إلا بعد الدربة الطويلة، وإذا فاق من ذهوله وتعودت عيناه على ضوء النهار استطاع أن ينظر إلى الأشياء نفسها وأن يحدق إلى الشمس مصدر كل ضوء"[1].

والحقيقة أن القول بالمعرفة الفطرية قول لم ينفرد به القدماء، فقد تحدث الفيلسوف الفرنسي رنيه ديكارت عن المعرفة الفطرية، واعتبر أن النفس تستنبط مجموعة من التصورات الفطرية كما هو الأمر بالنسبة لمعرفة الله والنفس والامتداد والحركة.

المطلب الثاني

المعرفة المكتسبة

هي النظرية القائلة بأن الإنسان يولد صفحة بيضاء ودون معارف البتة، ويكسبه التعلم والتدريب والخبرة والتجربة ما يحتاج إليه وما نرغب في تعليمه إياه، وانطلاقا من هذا التصور يمكننا أن نكسبه الشخصية التي نرغب فيها، بل إن الاعتداد بهذا الرأي جعل علماء الاجتماع مثلا يرون أن كل ما يكسبه الإنسان من معارف وطرق تفكير يعود إلى البيئة الاجتماعية أو الجغرافية بل والى التصورات الدينية التي يعتنقها أيضا والتي تأتيه من مجتمعه أيضا.

كما أن الفلسفة التجريبية الإنكليزية ساهمت بل وقامت على هذا التوجه كما هو الأمر بالنسبة لجون لوك وجون ستوارت مل وديفيد هيوم؛ حيث يرون كما يقول باقر الصدر: "أن الإحساس هو الممون الوحيد للذهن البشري بالتصورات والمعاني، والقوة الذهنية هي القوة العاكسة للإحساسات المختلفة في الذهن، فنحن حين نحس بالشيء نستطيع أن نتصوره. أي أن نأخذ صورة عنه في ذهننا، وأما المعاني التي لا يمتد إليها الحس فلا يمكن للنفس ابتداعها وابتكارها ذاتيا وبصورة مستقلة ...

وتتركز النظرية الحسية على التجربة؛ فقد دلت التجارب العلمية على أن الحس هو الإحساس الذي تنبثق عنه التصورات البشرية، فمن حرم لونا من ألوان الحس فهو لا يستطيع أن يتصور المعاني ذات العلاقة بذلك الحس الخاص"[1].

وبهذا نستطيع القول أن موضوع المعرفة من الموضوعات الهامة التي شغلت الفلاسفة طيلة تاريخ الفلسفة، حتى أننا لا نستطيع أن نتجاهل هذا المبحث في أي مذهب فلسفي سواء اكان في القديم أم حاليا.

1